

## مهنة التعليم .. بين ثنائية الشغب والشغف

شيماء ناصر

عندما كنت طالبة كان يقال لي: «أنت رأس الحية» . . . «العقل المدبر». هذه الكلمات التي كانت تتردد على لسان مديرتي التي كانت معروفة بجبروتها وقوتها وهيمتها . . . إذن، كنت رأس الأفعى على حد تعبيرها . . . فقد كنت أمقت المدرسة وأعد خطواتي كل يوم في مسيري إليها . . . وعلى الرغم من مشاغباتي وتمردتي وهروبي منها في كثير من الأحيان . . . فإنني كنت الأكثر تفوقاً . . . لذا كان من الصعب على المديرية أو حتى المعلمات أن يتخذن بحقي إجراء تعسفياً . . .

ولاحترامي الشديد لكل من كان له فضل عليّ بجامعتي، بدأت تتغلغل في مغاليقي فكرة المعلمة، وكان عندي أمل بالتغيير. كان الأمل يسكن أنفاسي ويخاطب أفكارني لأحقق ما أنا عازمة عليه. وأذكر يوم استشهداكتور في الجامعة مادة الإدارة الصفية بمقولة لسيد قطب تقول: «إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامة مهما تكن طنانة ومتحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها، ولن يؤمن إنسان بما يقول إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول . . . الخ». ما زلت احفظ كلماته لإيماني العميق بها، وإيماني أنني لن أصبح معلمة تحقق تغييراً وتفتح دروباً وآفاقاً، إلا إن آمنت بدوري . . . إلى أن تخرجت وانتقلت للعيش هنا في رام الله.

في قرية دير قديس، وعلى الرغم من انكسارات الانتقال لما عانيته من ألم الفراق ووحشة الانتقال، فإنني لم أسمح لنفسي بالتراجع . . . فأنا الآن وبعد اختياري لأكون بديلة في قرية بعيدة جداً عن مكان سكني لمدة ثلاثة أشهر، فقد أصبحت أمام تجربة معقدة تنقلني إلى تلك الواحات الضائعة من المسؤولية والتفاني والعطاء . . . بعد المسافة زاد حماسي لخروجي من أجواء القرية، ولإحياء فرص للتعرف على الوطن الذي لم أكن أعرف منه سوى دير قديس، وبين استقبال المديرية وطاقمها الرائعين بكل ما تحويه الروعة من معان، وبين أجواء المدرسة المتعاونة والمتحابية، قلت الحمد لله من هنا سأبدأ.

أذكر مرة أن معلمة اللغة الإنجليزية أخبرت والدتي في اجتماع للأمهات عن مشاكساتي بالحصة، وقالت: «أرجوك لا تخبريها عني وإلا بكرة رح تعملي يوم الحساب». أكلت نصيبي من «البهدلة» من والدي، وعلى إثر كلامها حرمت من المصروف مدة أسبوع . . . لذا أقسمت أن لا يكون مجرد حساب. وبعد التحقيق عرفتها، . . . وللأسف أنني تخطيت حدودي بالرد عليها . . . وكنت أقول: «عمرى ما بصير معلمة، مستحيل».

وبعد تخرجي من التوجيهي وبذلك التفوق الذي لم يعجب والدي . . . قلت في نفسي: «لدي قلم سيجعل مني اسماً لامعاً براقاً في عالم الصحافة . . . صحافة؟! «أبدأ، يا معلمة يا ما تدرسي». هذه كانت كلمات والدي . . . التي أشكره عليها الآن . . . لأنني وبعد سبع سنوات من تجربتي كمعلمة . . . اكتشفت أنه ليس المعلم فقط هو من لا يحب وظيفته حتى أنني حاورت طبيياً مرة، فقال: الطب مقبرة المواهب . . . ليتني كنت شيئاً آخر.

المهم، دخلت كلية التربية في الجامعة الأردنية، وتخصصت في أساليب اللغة الإنجليزية، واخترت هذا التخصص (معلم مجال) لأنه يعنى بإعطاء مساقات كثيرة في علم النفس، وأنا كنت أجد نفسي ملكة تربعت على عرش هذا التخصص .

علينا بعدها بالتعليقات عن ضعف مستوى الطلاب، متناسين في كل مرة أن المنهاج هو جزء لا يتجزأ من هذه المشكلة، وعدد الحصص غير كاف لإنهاء هذه المجلدات . . . فأنا شخصياً أقوم بإعطاء حصص إضافية على مدار السنة الدراسية، كما أقوم بإعطاء دوام إضافي في يوم عطلتي (يوم السبت)، وهذا إن كان على حساب وقتي وجهدي، إلا أنني حريصة كل الحرص على أن أكون المعلمة التي حلمت أن أكونها يوماً ما، على الرغم من أنني لم أتلق يوماً كلمة شكر واحدة أو حتى «يعطيك العافية»، ولا من أي جهة تذكر . . . ولا أنتظر ولن أنتظر . . . فهذا ما يمليه ضميري علي . . . .

لكن الحق حق . إنني كنت سابقاً أستيقظ نشطة وأهم إلى عملي وكلي إقبال وحيوية، أما اليوم أراني متثاقلة لكثرة المتطلبات التي بدورها انعكست على نفسية المعلم بشكل عام، وبات ينظر معها إلى المدرسة بأنها مقبرة المواهب . . . ووصلت لمرحلة النظر إلى سماء الأمل المحال . . . ونوبة من الفشل اعترتني . . . ولم أجد لنفسي حضوراً على الخارطة المستقبلية .

ومن باب العرفان بالجميل . . . ما إن التحقت بدورات مؤسسة القطان حتى تفتح ما كان قد ذبل، وعرفت أن التعليم جميل ما إن أردنا أن نجعله كذلك . . . بيدنا تغيير الظروف . . . لا أن ننتظر منها أن تتغير . . . أدركت أن لكل منا ملكته الخاصة به . . . قادر من خلالها أن يجعل الحياة لوحة فنية ما دنا مجبرين على رسمها وعيشها . . . كل البدايات صعبة . . . ومن هنا كانت بدايتي . . . سأدفن كل الذي مضى في الصحراء لكيلا أعثر له على أثر . . . وسأودعه الوداع الأخير .

مدرسة بنات دبر قديس الثانوية

كان دخولي الصف التوجيهي الأدبي مرعباً بعض الشيء في بدايته، شعرت وكأنني تتقاذني أمواج البحر، أتعلم لأكتشف المعاني وألتقطها، ويقذفني إلى شاطئ الأمان لأخذ ذاك النفس العميق . . . بعد خمس دقائق فقط، شعرت براحة عظمى تفتحت لها مغاليقي، وتبددت معها كل مخاوفي، كان لتلك المدرسة الفضل بتمسكي بدوري كمعلمة، ولها من الأثر على نفسي ما يحيي حتى الأجزاء الهامدة في . . . كانت تربطنا علاقة رائعة . . . وكان تعليقي بطالباتي كبيراً . . . حيث أن الفارق بيننا ثلاث سنوات فقط . . . كنت في الواقع أحتالهن . . . كنت أشوق كثيراً لرؤيتهن . . . لأنني أرى معالم البهجة على وجوههن . . . كنت اقضي (الفرصة) بينهن، أشاركهن الحديث ونقترح ألعاباً ترفيهية وانتظر حصّة الرياضة حتى أتأنفس معهن . . . لذا كنت أكره جداً مقولة «بكرة الجمعة» «ياي بكرة عطلة»، كنت أمقت العطل، وللأسف أقول «كنت» لأنني الآن أفنّش عن يوم لارتاح فيه من عناء المتطلبات الزائدة اللامنطقية، والأبعد ما تكون عن الصافية والتربوية . . . التي ترهقني أنا كمعلمة . . . وتجعل مني آلة ناسخة . . . أضيع وقتي في ملء أوراق لا أقتنع بها، ولا أجد جدوى لها . . . بدل أن أستغل وقتي في ابتكار طرق إبداعية أقدم بها حصتي الصافية القادمة؛ كتخصير وسائل تربوية تقلل من الوقت والجهد المبذول في الحصّة.

وشيناً فشيناً بدأت اشعر أنني أتية في ساحات الروتين اليومي الفظيع . . . وبدأت قدراتي تكبل بأغلال . . . أغلال العجز عن تحقيق الكثير ربما . . . وربما أن المنهاج هو أول عائق في طريق الانطلاق إلى تحقيق الأهداف، حيث أننا مطالبون دوماً بإنهاء كل حرف فيه على عبثية بعض تمارينه، ثم يطلب منا أن نبدع بالحصّة، وأول ما يفعلونه هو سؤال الطلاب لقياس مدى إتقانهم المادة المقطوعة، وينهالون



من فعاليات المساق التأسيسي (الدراما في التعليم) 2011-2012.